(٧) يحشد ابن المعتز حول الباب البديعى شواهدوفيرة من النصوص الأدبية لا يحلل صورها البيانية وإنما هو يكتفى بالتفسير اللغوى والإشارة السريعة أحياناً إلى موطن اللون البلاغى وكأنه يجعل من كتابه معرضاً للنصوص الأدبية تنطق بذاتها عن ألوانها البلاغية.

(٨) ونلمح فيما يورده ابن المعتز من النصوص الأدبية ذوقاً أدبياً رفيعاً يختار روائع النص الأدبى التى يتضمنها باب بلاغى ما . ثم يتبعه كما نرى فى باب الاستعارة بما يستقبح من النصوص فى هذا الباب عينه وهو بهذا يعرض صورتين متقابلتين إحداهما جميلة تجذب والأخرى قبيحة تنفر. فتربية ابن المعتز للذوق الأدبى تربية عملية تقوم على أساس من الخبرة بالنصوص الأدبية جيدها ورديئها، جيدها ليحتذى ورديئها ليتجنب.

(٩) ويكون من الطبيعى أن نبحث فى كتاب ابن المعتز وهو من أوائل ما ألف فى البحث البلاغى عن التأثير الأجنبى فيه. لقد عاش ابن المعتز فى عصر وفد فيه التيار الثقافى الأجنبى على الحياة الأدبية العربية نلمح صوره هكذا واضحة فى كتب الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكما قلنا فبديع ابن المعتز مؤلف سنة ٢٧٤هـ ومع هذا نلتمس هذا الأثر الأجنبى فى الكتاب فلا نجده اللهم إلا فى اللالتزام بترتيب معين فى جمع النصوص الأدبية حول باب بلاغى بعينه أما غير ذلك فعربى خالص.

(١٠) ونخلص إلى أن لكتاب ابن المعتز قيمة أدبية خطيرة حين نرصد مثلا بحوث إعجاز القرآن وحين نذكر أنه جمع وضبط مصطلحات البديع حتى عده البلاغيون مؤسس البديع فى البلاغة العربية وأفاد من جهوده قدامه وأبو هلال ومن تلاهما ثم أن ابن المعتز بحكم أنه شاعر مبدع يميل إلى الطابع الأدبى وينفر من التكلف حاول أن يبعد عن مجال الإنتاج الأدبى زخرف الصنعة المتكلفة حين رأى إفراط الشعراء المعاصرين له فى البديع. واعتبارهم هذا الزخرف هو القيمةالكبرى الجمالية فدلهم على أن من النص الأدبى القديم ما جاءت فيه هذه الألوان نادرة الوقوع ولكنها فى أعلى منزلة لأنها غير مقصود إليها. وهو إلى هذا كله من أقدم ما وصلنا من البحوث البلاغية المنظمة التى تعتمل فى المحل الأول على النص الأدبى دون غيره والدراسة الأدبية الواعية تجعل من النص الأدبى قصدها الأول والأخير.